# نعيم الرؤية الإلهية

## لباب الفردوس :

يتمتع موضوع الرؤية الإلهية بأهمية بالغة فى التراث الإسلامى ، إذ لا يكاد يخلو كتاب من ذكر مشاهده بالتفصيل ، ويعتبرها العلماء لباب الفردوس ونعيمه الحقيقى ، إذ ما عداه من سائر نعيم الجنة – على حد تعبير الغزالى – « فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى »[١] . ومن هنا فإن كتب التوحيد والعقائد تتعرض لموضوع الرؤية دائما بالإثبات والرد على المنكرين ، ولا تعنينا المسألة هنا من الوجهة العقائدية لأن لها مباحثها وقضاياها ، وإنما تعنينا من الوجهة التصويرية الفنية التى تقدم مادة صالحة للتأثير الأدبى فى تاريخ الثقافة الإنسانية .

ويمكن تقسيم أهم المصادر الإسلامية التى اعتمدها الباحثون فى هذا الصدد فى مجموعتين :

الأولى : مجموعة أحاديث المعراج النبوى وما نسج حولها فى كتب الرقائق من روايات مفصلة ، وأهم هذه الكتب كتاب متقدم هو « التوهم » للمحاسبى (المتوفى سنة ٢٤٣هـ) وكتاب متأخر هو « حادى الأرواح » لابن القيم الجوزية (٧٥١هـ) .

الثانية : الكتب الصوفية التى تعرضت لمعراج الأرواح وحالاته ومشاهده ورموزه مثل الفتوحات المكية لابن عربى والمعراج للقشيرى .

فإذا أخذنا فى تأمل وتحليل هذه العناصر الإسلامية لتحديد مجالات التقاء دانتى بها فى مشاهد الذروة فى الفردوس المتصلة بالاستغراق فى رؤية النور الإلهى وجدنا أن كلا من هاتين المجموعتين قد مارس تأثيره الواضح على خيال الشاعر الكبير ، ولنبدأ أولا بتعيين هذه المشاهد من دانتى قبل أن نشير إلى نظائرها ومصادرها الإسلامية . فدانتى يرى بؤرة مشعة للذات الإلهية تحوطها دوائر من الأرواح الملائكية التى تتألق بالنور وهى تدور بلا توقف حول مركزها وتنشد أغانيها ، وكل دائرة تتكون مما لا حصر له من الملائكة :

« رأيت نقطة يشع منها نور شديد التألق ، حتى لينبغى إغلاق العينين اللتين يسطع عليهما ، بما واتاها من الحدة الفائقة »[٢] .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين الغزالى على هامش كتاب « إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار أحياء علوم الدين » للزبيدى المرتضى ، الجزء العاشر ص ٥٥٥ .

(٢) انظر : الفردوس ؛ الترجمة المذكورة ، نشيد ٢٨ أبيات ١٦ – ١٨ .

« على البعد ذاته دارت من النار دائرة ، من حولها تلك النقطة بسرعة فائقة ، حتى لتفوق تلك السماء التى تطوق العالم بأقصى سرعة . وأحيطت هذه بدائرة أخرى ، وتلك بثالثة .. ورابعة .. » .

« لم يتوهج حديد يغلى على غيره ماتوهجت به هذه الدوائر المشتعلة وصاحبت كل الأنوار دائرتها المحترقة ، وكانت من الكثرة بحيث بلغت ملايين الملايين » .

« إن نورا هناك فى العلياء يكشف لتلك الكائنات عن خالقها وهى التى لا سلام لها إلا فى رؤياه » .

« وإنه ليمتد بنفسه فى صورة دائرية حتى ليصبح محيطها بالنسبة للشمس نطاقا ذا اتساع شاسع »[1] .

والصنفان الأولان من الملائكة هم « السرافيون والكروبيون » ويحاول دانتى أن يحدق بنظره فى بؤرة النور الخالدة ولكن بصره يعشى ، بيد أنه لا يلبث أن يظفر بحدة البصر ويستطيع أن ينفذ تدريجيا بنظره حتى ينتهى بتثبيته فى البؤرة ، كما أشرنا من قبل ، ثم يعلن أنه عاجز عن وصف ما يرى لأن الذهول قد مسح من عقله كل ذكرى . وحتى لو تذكر فإن ما رأى يفوق كل قدرة على الوصف تتمتع بها لغة البشر .

وإذا تركنا جانبا الرموز التى أشار إليها دانتى للعقائد المسيحية وجدنا أن كل ما يصفه من الرؤية ينحصر فى هذه الظواهر التى يتذكرها بذهول : تأمل فكرى واضح يكشف له رويدا رويدا ، سبات وتراخ فى القوى ، ذهول من الروعة ، ثم متعة روحية عارمة وعذبة معا .

« ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ، صارت مشاهدتى أعظم من كلامنا
الذى يعجز أمام هذه الرؤية ، كما تعجز ذاكرتنا أمام عظمة مثلها .
وكذلك الذى يرى فى حلمه شيئًا ، وتبقى من بعد حلمه
إثارة مما أحس به ، ولا تستعيد ذاكرته سائر ما رآه .
هكذا أصبحت إذا كادت تخوننى رؤيتى تمامًا ، وإن كانت
لا تزال تقطر فى قلبى تلك البهجة التى نبعت منها ..
وأشعر بحديثى عنها أن بهجتى تشتد بها وتذكو ..

(١) انظر : الفردوس ، الترجمة المذكورة ، أناشيد ٢٨ ، ٣٠ وكتاب أسين بالاثيوس ص ٥٦ .

هكذا كان عقلى وهو معلق تماما ، يتأمل
ثابتا منتهيا دون حركة
وظل مشوقا إلى مزيد من التأمل »[١] .

وقد فشلت كل المحاولات الماهرة الصبورة التى بذلها الباحثون فى مصادر دانتى الأوروبية للعثور على سوابق لهذه النماذج والتصورات الفنية ، ولم تجد ما يقرب من هذا الجمال الرائع فى التقاليد الدينية المسيحية التى تخلو من أى نظير لهذه الدوائر الهندسية التى يشكلها الملائكة وهم يدورون حول النور الإلهى . بينما تقدم الروايات الإسلامية النموذج الأصيل لهذا التخطيط ، مما يكسب قضية التأثير قوة برهانية حاسمة . فصفوف الأرواح الملائكية التى تحيط بالعرش الإلهى تتألف بدورها مما لا يحصى من الملائكة ، ويمثل كل صف طبقة أو درجة منهم ، ويعتبر الكروبيون أشدهم قربا لله ، وكلهم يترنمون بأناشيد قدسية يسبحون فيها بحمده ، وتنبعث منهم جداول النور ، على أن عدد هذه الصفوف تسعة أيضًا ، يحيط كل صف بما يليه على شكل دائرى فتمثل جميعا تسعة صفوف دائرية متداخلة ، وكلهم يدورون فى نهاية الأمر فى حركة لاتهدأ حول العرش الذى يتمثل ايضًا فى نور متلألئ لا يوصف بهاؤه[٢] .

ويقدم لنا الرسول ﷺ رؤيته فى مرحلتين إحداهما عندما كان لا يزال فى صحبة جبريل حيث تعشى بصره فى هذه الآفاق العليا الأنوار الإلهية فى أوجها وهى لا تزال بعيدة منه ، مثلما تعشى دانتى للمرة الأولى وهو لايزال فى السماء التاسعة بصحبة بياتريش ، والأخرى عندما يتركه الدليل الملائكى ويرتفع به الرفرف النورى فيوفق إلى إغماض عينيه وينتقل النور إلى قلبه ويتأمل مبهوتا نور الذات الإلهية مثل دانتى فى الأنشودة الأخيرة من الفردوس .

على أن تحليل الظواهر النفسية التى تتمثل فى ذهول الرسول ومراحل وطبيعة إفاقته يعطينا نتائج مشابهة لما نجده بعد ذلك عند دانتى ، فهو يشعر أولا أن النور يعشى بصره حتى يخشى من العمى ، ثم يلاحظ فجأة أن نظره قد أخذ يقوى ويحتد وأنه قد أصبح بوسعه أن يثبت بصره فى النور الإلهى ، فقد حظى بنعمة الله عليه لاستمرار رؤيته ، ثم يعلن أنه عاجز عن وصف ما رأى ولا يتذكر إلا أن تأمله قد بعث فيه لونا من الاسترخاء والذهول الذى تعقبه متعة عارمة ، بقول :

---

(١) نفس المصدر السابق ، نشيد ٣٣ أبيات ٥٥ – ٦٣ و ٩٣ – ٩٩ .
(٢) انظر لآلئ السيوطى ، الأول ص ٧٣ وما بعدها .

« فوجدت عند ذلك حلاوته وطيب ريحه وبرد لذاذته وكرامة رؤيته فاضمحل كل هول كنت لقيت وتجلت عنى روعاتى واطمأن قلبى وامتلأت فرحا وقرت عيناى ووقع الاستبشار والطرب على حتى جعلت أميل وأتكفأ يمينا وشمالا ويأخذنى مثل السبات .. وظننت أن من فى الأرض والسماوات ماتوا كلهم لأنى لا أسمع شيئًا من أصوات الملائكة .. ثم رد إلى ذهنى فكأنى كنت مستوسنا وافقت فثاب إلى عقلى »[١] .

وعندما تتوافق مراحل الرؤية مع تفاصيل الحالة النفسية فإن هذا لا يمكن أن يفسر بمحض الصدفة ، خاصة وأن الوثيقة الأساسية وهى « معراج محمد » المترجمة تقدم خلاصة هذه العناصر كما سنشير فيما بعد .

وهناك ملاحظة أخرى طريفة تتصل بالتوافق الغريب بين توقيت المعراج عند دانتى ونظيره فى التراث الإسلامى ؛ فدانتى قد قام برحلته إلى العالم الآخر « فى منتصف طريق حياتنا » كما يقول ؛ أى فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أو من الثانية والثلاثين إلى الثالثة والثلاثين كما يقول شراحه . وهذا يتفق تمامًا مع ما ورد فى التراث الإسلامى عن عمر أهل الجنة من أنهم « مرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين سنة » أو كما جاء فى رواية أخرى « على ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة » ويبدأ دانتى رحلته ليلة الجمعة وبعد أن يفرغ من الجحيم والمطهر يبدأ رحلته إلى الفردوس ليلة الجمعة ايضًا ، وتكاد أحاديث الرؤية فى المأثورات الإسلامية تجمع على أنها تتم أيضًا يوم الجمعة تكريمًا لهذا اليوم الذى فضل به بنى الإسلام وأمته . ولا يوجد فى الفكر المسيحى ميزة خاصة تجعل دانتى يختار ليلة الجمعة للشهود السماوى ؛ بينما نجد التراث الإسلامى يختار هذا اليوم ليربط بينه وبين العيد الأسبوعى الدينى لصلاة الجمعة الجامعة[٢] فيتبعه دانتى فى هذا التوقيت الدقيق .

## رؤية المتصوفة :

فإذا ما انتقلنا إلى المجال الصوفى وجدنا أن الرؤية الإلهية تعد عند متصوفة المسلمين عامة وابن عربى بصفة خاصة لباب حياة الفردوس وجماع ملذاتها الروحية الناجمة عن انبعاث النور من الذات الإلهية . فالله هو مصدر الضوء الباهر الذى ينتشر فى موجات

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق ص ٧٤ – ٧٥ .

(٢) انظر : مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ١٥٩ .

شعاعية تصل إلى العبد فتؤهله لرؤية المصدر القدسى ، ويتجلى هذا الضوء خلال روح العبد وجسمه فيرفع من قدرته الطبيعية ويرهف من حواسه البصرية .

وهنارى تشابهًا واضحًا بين دانتى وابن‌عربى فى الأفكار والصورالفنية معا،فدانتى يقول:

« وبهرتنى قوة الضوء المشع ..
من الخالق للمخلوقات ..
وكل ما يبدو منه مصنوع من الشعاع المنعكس ..
منتظما فوق النور ومنعكسا عليه .
رأيت من جاء إلى العلياء ..
وإذا كانت أدنى هذه المراتب تضم هذا النور العظيم .. »
« وأعتقد أن بصرى كان سيتولاه الزيغ
من حدة ذلك الشعاع الباهر الذى احتملته لو أن عيناى حادتا عنه
أيتها النعمة الفياضة التى اجترأت بفضلها على أن أسدد عينى
إلى النور الأبدى حتى استنفذت هناك كل إبصارى »[١]

فقارن هذا بكلمات ابن عربى فى فتوحاته إذ يقول :

« الله يتجلى لعباده فى النور العام .. إذا هم بنور قد بهرهم فيخرون سجدا فيسرى ذلك النور فى أبصارهم ظاهرا وفى بصائرهم باطنا وفى أجزاء أبدانهم كلها وفى لطائف نفوسهم فيرجع كل شخص منهم عينًا كله .. فهذا يعطيهم إياه ذلك النور فبه يطيقون المشاهدة والرؤية .. فيتجلى ا لحق تعالى فينفهق نور يسرى فى ذواتهم وقد أبهتهم جمال الرب »[٢] .

ويلاحظ أن « سان برناردو » هو الذى يعلن لدانتى قرب تمتعه بالنور الإلهى ويدعوه إلى إعداد نفسه وتهيئتها لذلك إذ يقول :

« سنتجه بأعيننا إلى الحب الأول حتى تتغلغل بقدر استطاعتك
خلال أنواره حين توجه أنظارك إليه »
« حتى تخلصيه بصلواتك من كل ما فى طبيعته الفانية من سحاب
لكى يكشف له عن البهجة السامية »[٣] .

---

(١) انظر : الفردوس ، الطبعة المذكورة ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣٠ و٣٣ .
(٢) انظر : الفتوحات المكية ، طبعة دار صادر ببيروت – الجزء الأول ص ٤١٨ .
(٣) انظر : الفردوس ، أناشيد ٣٢/٣٣ .

ويقول ابن عربى :

« ثم يأتيهم رسول الله .. فيقول لهم تأهبوا لرؤية ربكم جل جلاله ، فها هو يتجلى لكم .. وبينه وبين خلقه ثلاث حجب .. فلا يستطيعون رؤيته بالنظر إلى تلك الحجب ، فيقول الله تعالى لأعظم الحجبة عنده : ارفع الحجب بينى وبين عبادى حتى يرونى ، فترفع الحجب فيتجلى لهم الحق خلف حجاب واحد فى اسمه الجميل اللطيف إلى أبصارهم »[١] .

ويتتبع الباحثون مصادر دانتى فى هذا التصور للنور الإلهى فى الأدب المسيحى فى العصور الوسطى فيجدون أن القدر المتاح من ذلك يعود إلى القديس « توماس الإكوينى » الذى يشرح فكرة مصدر النور الإلهى وإشعاعه على البشر لإكمال قدراتهم الطبيعية وبصرهم به حتى يرتفعوا إلى مرتبة تؤهلهم للرؤية الإلهية ، ولكن نفس هذا القديس يعود فيعترف بأنه قد استقى فكرته تلك من الفلاسفة المسلمين ابتداء من الفارابى وابن سينا إلى ابن ماجه وابن رشد ، وأنه قد تقبل على وجه التحديد تصور ابن رشد للرؤية الإلهية[٢] هذا فى حد ذاته شاهد على أن التراث الإسلامى هو الذى غذى دانتى مباشرة باطلاعه على فلذات منه فى قصص المعراج وبطريق غير مباشر بتأثره بالإكوينى الذى سبق له أن نهل من ينابيعه .

ويتردد عند دانتى فى مشاهد عديدة من الفردوس فكرة فحواها أن النور المكتسب الذى ينعكس إلى الخارج يتفاوت فى بريقه من طوباوى إلى آخر لمقاماته فى منازل السماوات ولدرجة نعيمه فى الفردوس ، يقول مثلا :

« وإن تألقه بشعلتها مرتبط ، وشعلته لرؤية الله تابعة
وهذه تكون بقدر ما لها من النعمة التى تمنح بقدر جدارتها .
سيبلغ شخصنا باكتمال وجوده أسمى مراتب الكمال
وبهذا سيعظم ما يسبغه علينا الخير الأسمى من النور حبًا وكرامة
ذلك النور الذى يؤهلنا لرؤيته »[٣] .

وقد اجتهد شراح دانتى لرد هذه الفكرة أيضًا إلى تعاليم القديس « توماس الإكوينى » التى تفيد بأنه من أهم خواص الأجسام السماوية النورانية أنها ناجمة عن اكتمال مجد

---

(١) انظر : المصدر السابق ص ٤١٨ .
(٢) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ، ص ٢٤٨ .
(٣) انظر : الفردوس نشيد ١٤ أبيات ٣٤ ، ٤٦ .

الأرواح باتصالها بالأجساد ، لكن ابن عربى كان قد سبق له أن شرح ذلك على أساس أن « النور الإلهى يسرى فى أبصار الناس ظاهرًا وفى بصائرهم باطنا وفى أجزاء أبدانهم كلها حتى ينصعقوا عن آخرهم بنور ذلك التجلى ويظهر كل واحد منهم بنور صورة ما شاهده » كما أنهم « يجدون منازلهم وأهليهم منصبغين بتلك الصورة ، فيرون جميع ملكهم قد اكتسى بهاء وجمالا ونورا من وجههم أفاضوه افاضة ذاتية على ملكهم » .

ويلاحظ أن هذه الفكرة الإشراقية ليست مقصورة على الفلاسفة والمتصوفة المتأخرين . بل هى شائعة فى المأثورات الإسلامية منذ عهد متقدم ، ففى كتاب « التوهم » للمحاسبى مثلا نجد أنه بعد أن يصف موكب الرؤية الإلهية الباذخ وعودة العبد منه إلى مقره فى الجنة :

« بادرت إليه أزواجه ، فلما نظرت زوجته إلى جمال وجهه قد ضوعف فى حسنه وإشراقه ونوره أرادت له حبًا وعشقًا ، وأشرقت قصوره وقبابه وخيامه وأزواجه من نور وجهه ، وازدادت أزواجه حسنًا وجمالا ووجاهة وحشمة »[1] .

وقد انتشرت هذه المشاهد فى كل الآثار الإسلامية المتعلقة بالجنة الغاصة بالأنوار ، فهاهو السمرقندى ايضًا يصور بعض هذه المظاهر الإشراقية بقوله :

« يرى المؤمن وجهه فى نور وجه صاحبته وفى صدرها وترى وجهها فى وجهه وصدره من كثرة الأنوار » وبعد الرؤية تقول المرأة لزوجها :

« ما أشد حسنك اليوم وما أكثر نورك ، فيقول لها أنى قد نظرت إلى وجه ربى فوقع نوره على وجهى ، وأنت أيضًا والله العظيم لقد عظم نور وجهك وحسنك ، فتقول له ، كيف لا يشرق وجهى بالنور وقد وقع عليه نور ربه فتشرق وجوههم بالأنوار ويدوم نعيمهم فى دار القرار »[2] .

وتطرد الآثار لتأكيد تغلغل النور فى هذا العالم الآخر كما سبق أن أشرنا ، فالحوريات أيضًا من طبيعة نورانية شفافة إذ تضىء الواحدة منهن بسمتها السماوات كلها ، فهى أشد إشراقًا من الشمس والقمر ، و« يرى مخ ساقها تحت سبعين حلة » لما فى جسمها من خواص بلورية شفافة مثل الكأس الذى يشف عما فيه . ويتفنن المحاسبى فى وصف ذلك بقوله :

---

(١) انظر : كتاب التوهم للحارث المحاسبى ص ٦٢ .

(٢) انظر : قرة العيون ومفرح القلوب المحزون لأبى الليث السمرقندى . ص ٣٧ - ٤١ .

« فتوهم .. وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها ، فسطع نور بنانها فى الشراب مع نور وجهها ونحرها ونور الجنان ونور وجهك وأنت مقابلها ، فتجتمع كل هذه الأنوار تلمع بصفاتها فى كفها وقد مدت بها إليك يدها »[١] .

وكل هذا مستقى من الأحاديث النبوية التى يذهب بعضها فى تصويرها هذه الطبيعة النورانية للحوريات إلى حد قوله : « ثم يضع أحدكم يده بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت »[٢] . كما يذهب بعضها الآخر إلى تصوير الرسول ﷺ بهذه الطبيعة النورانية خلال معراجه إذ « لايرى لصورته ظل فى شمس ولا قمر ولا سراج » .

فإذا اطلع دانتى – كما هو راجح – على كثير من عناصر هذا التراث ثم تراءت فى صوره أشكال لهذا النور الذى لا يحول حائل دون مسراه فى مثل قوله :

« ولم يحل دون الرؤية أو البهاء توسط هذه الجماعة العظيمة
الطائرة بين الزهرة وبين ما كان فى العلياء
إذ يتغلغل النور الإلهى خلال العالم بما يتفق له من جدارة
بحيث لا يتأتى أن يحول دون مسراه حائل »[٣] .

« وكانت الثانية كأن لحمها وعظامها قد صنعت من الزمرد »[٤] .

أدركنا بيسر مصدره الإسلامى الذى تتواتر فيه صور النور من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فالقرآن يصف أهل الجنة بأنهم ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾[٥] لا ظلهم كما هو المألوف فى الحياة الدنيا ، والأحاديث والمأثورات تصور المظاهر المختلفة لهذا النور وكيف أنه جميعًا قبس من النور الإلهى الذى يشرق على الكائنات فيضفى عليها وجودها وبهاءها خاصة فى حالة الرؤية الإلهية .

## اختلاف الدرجات

وبالرغم من اتفاق مصدر النور خلال الرؤية إلا أن هذا لا يمنع من اختلاف الدرجات والمستويات ، مما لا يمس صميم الرؤية الإلهية فى جوهرها ، بل يتصل بأعراضها المتمثلة

---

(١) انظر : المصدر السابق للكحاسى ص ٤٧ .
(٢) انظر : الترغيب والترهيب للمنذرى ، الجزء الرابع ص ٩٩٠ .
(٣) انظر : الفردوس : ١٩/٣١ .
(٤) انظر المطهر : ١٢٤/٢٩ .
(٥) سورة الحديد آية رقم ١٢ .

فى أشكالها المتنوعة وصورها المتعددة إذ تختلف الأحوال التى يتجلى بها النور الإلهى للعبد من درجة إلى أخرى فى الصفاء والبريق الذى ينعكس عليهم من الضوء ، وهذا ما رأينا عبارة ابن عربى عنه بأنه : « واحد من حيث هو تجل وهو كثير من حيث اختلاف الصور » ويقترب من ذلك دانتى إذ يقول :

« وما للبعد أو القرب أن يضيفا شيئًا هناك ..

إذ ليس للقانون الطبيعى من أثر حيث تجرى بغير وسيط أحكام الله » ..

أى أن هناك وحدة فى التجلى الإلهى من حيث الرؤية بالرغم من اختلاف الدرجات فى التلقى الذى لا يعودإلى الذات المرئية وإنما إلى طريقة رؤيتها ، ولهذا يعود دانتى فيقول :

« وليس لأنه كان هناك أكثر من مظهر واحد
فحسب فى النور الساطع الذى تأملته .
إذ هو على الحال التى كان عليها من قبل أبدًا .
ولكن بإبصارى الذى اكتسب فى باطنى بالتأمل قوة .
تغير من أمامى مظهر واحد فحسب ، بينما كنت أتبدل أنا نفسى »[١] .

وقد أثار المستشرق الأسبانى الكبير – صاحب نظرية التأثير – « أسين بالاثيوس » مشكلة تتصل بالمعيار الذى تنبنى عليه فوارق الدرجات فى الرؤية ، فبينما نرى أن ابن عربى يقيم اختلاف الصور والمراتب على أساس درجات المعرفة بالله يبدو أن دانتى يرتكز على معيار آخر هو الحب ، فابن عربى يقول « فمن علمه فى كل معتقد فله نور كل معتقد ، ومن علمه فى اعتقاد خاص معين لم يكن له سوى نور ذلك المعتقد » كما يقول « إن الرؤية يوم الزيارة تابعة للاعتقادات فى الدنيا ، فمن اعتقد فى ربه ما أعطاه النظر وما أعطاه الكشف وما أعطاه تقليد رسوله فإنه يرى ربه فى صورة وجه كل اعتقاد ربط عليه »[٢] .

أما عند دانتى فيبدو أن التلقى يعتمد على محور آخر سوى المعرفة إذ يقول :

« تتجه بمحبتها وعينيها نحو هدف واحد »
« بمثل هذه المحبة ، وبمثل هذه البهجة

---

(١) انظر : الفردوس أناشيد ٣٠ / ١٢١ و ٣٣ / ١٠٩ .
(٢) الفتوحات المكية ، طبعة دار صادر ، الجزء الثانى ص ٨٥ .

عندئذ اتجهنا إلى النور السرمدى »[١] .

فمثل هذه الأبيات قد توحى بأن موقف دانتى وجدانى يعتمد فى الرؤية على الحب ، بينما موقف ابن عربى السابق عقلى يعتمد على النظر . لكن هذا الفرق الظاهرى سرعان ما يتلاشى عندما ندرك أن المعرفة عند ابن عربى ليست عقلية محضة ؛ فهى أولا معرفة بالله « فحدوا منازلهم فيه على قدر علمهم بالله لا على قدر عملهم » والمعرفة بالله اقتباس من نوره وإيمان به ، وهو ما يقرب منه دانتى أيضًا فى مثل قوله :

« حسبما يتجه إليه إيمان الأرواح

إذ ستمتلىء هذه الحديقة على حد سواء بكلا الوجهين من الإيمان » .

وهذا ما يعبر عنه ابن عربى بالعلم والمعرفة « فإن كانت معرفتهم عن كشف إلهى فإن لهؤلاء صفًا على حدة يتميزون به على سائر الخلق » وهو لا يغفل كلمة الحب ، إذ نجده فى نفس هذا المشهد يقول : « فإذا انصرفوا من الزيارة يتخيل كل صاحب اعتقاد أنه منهم ( أى أهل الكشف ) لأنه يرى صورة اعتقاده فيها كصورته ، فهو محبوب لجميع الطوائف من يكون بهذه الصفة »[٢] فابن عربى مثله فى ذلك مثل جميع المتصوفة المسلمين يرى أن قيمة علم الباطن تنبع من الحب الإلهى الناجم عن معرفة الإنسان بالله . ولعل أبا حامد الغزالى قد حدد بوضوح تام المقياس الإسلامى لذلك فى قوله عند معالجته للرؤية الإلهية فى باب الحب من كتاب الإحياء « فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر عنها الشرع بالإيمان » . أما البهجة والجذل اللذان يتحدث عنهما دانتى فيعبر عنهما الغزالى بقوله « وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشىء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء »[٣] .

فإذا أخذنا فى الاعتبار هذا الموقف الإسلامى فى جملته من موضوع المعرفة وارتباطه بالإيمان من ناحية وبالحب الخالص من ناحية أخرى أدركنا أن دانتى لم يكد يزيد عليه شيئًا فى تصوراته للرؤية فى الفردوس .

---

(١) انظر : الفردوس ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣١ و٣٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق لابن عربى ص ٨٥ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى على هامش إتحاف السادة المتقين – الجزء العاشر ص ٥٥٤ .

# صور الدوائر

تقدم المأثورات الإسلامية فى جملتها – سواء فى أحاديث المعراج أو فى تصوير رؤية الله فى الجنة – نموذجا متكررًا للحضرة الإلهية حيث يتجلى سبحانه وتعالى مثل شمس مضيئة تخطف أشعتها الأبصار وتحيط به صفوف الملائكة على هيئة دوائر من نور أيضًا . وقد زخرت كتب الرقائق وآداب الصوفية بتنويعات عديدة على هذا النموذج ، لعل أفعمها بالروح التشكيل ما نراه عند ابن عربى فى فتوحاته عند تصويره لرؤية الله فى الدار الآخرة حيث تأتى ملائكة السماوات صافات ، ملائكة كل سماء على حدة متميزة عن غيرها فيكونون سبعة صفوف محيطة ، أهل كل سماء صف حول العرش الإلهى الذى يشغل مركز الدوائر السبع .

ولكن دانتى عند وصوله إلى قمة معراجه السماوى الروحى يطمح إلى أن يشرح سر عقيدته المسيحية فى التثليث مع وحدة الجوهر المتجلى فى ثلاث مظاهر فلا يجد صورة يستخدمها لأداء هذا الرمز سوى الدوائر الهندسية ، فهناك ثلاث دوائر بنفس الحجم مع اختلاف اللون : اثنتان منها تبدوان كما لو كان كل منهما انعكاسا للآخر مثل قوس قزح والثالثة كاللهب المنبعث منهما :

« وفى الجوهر العميق الصافى من النور العظيم ، ظهرت لى
ثلاث حلقات مثلثة الألوان وذات محيط واحد
وبدت إحداهما من غيرها منعكسة انعكاس قوس قزح
من نفسه ، وظهرت الثالثة نارًا منبثقة من الأخريين »[1] .

واجتهد الشراح كالعادة – خاصة من علماء اللاهوت المسيحى هذه المرة – فى بيان عبقرية دانتى فى هذه الصورة التى تظل معلقة بالإبهام الشعرى بالرغم من نزعتها التفسيرية . فالرمز الهندسى للدوائر الثلاث يقدم تصورًا لله فى واحد متجليا – حسب العقيدة المسيحية – فى الأب والابن والروح القدس ، حيث يعكس الثانى الأول وينبعث لهب الثالث منهما بشكل دائرى أيضا .

وبالرغم من أن هذا الرمز الهندسى له سوابقه البعيدة فى الفلسفة الأفلوطينية المحدثة التى تتصور الذات الإلهية كمصدر للضوء إلا أن الإشراقيين المسلمين هم الذين عمموا هذا التصور وجعلوه أساسًا لأفكارهم الميتافيزيقية الإشراقية .

---

(١) انظر : الفردوس ، النشيد ٣٣ أبيات ١١٥ – ١٢١ .

وكان ابن عربى أشد هؤلاء الفلاسفة احتفالا بصورة الدوائر المركزية والمتداخلة لتصوير الذات الإلهية فى وحدانيتها المجردة وصفاتها المتعددة وخصائصها الإشراقية مثل النماذج التالية :

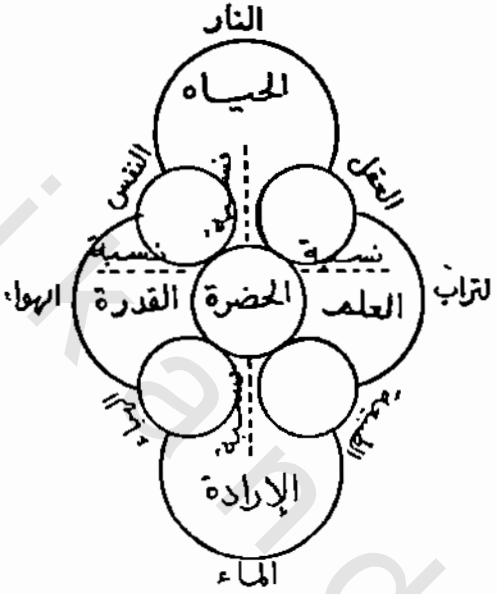


(شكل رقم ١)

فهو أحيانًا يتمثل فى استغراقه الصوفى المرهف الذات الإلهية متجلية رمزيا فى دائرة من نور أبيض يشع بهاء خالدا فوق نور أحمر مشع أيضًا وتنبعث منهما مجموعتان من الأضواء الخارجية ويتحركان برفق دون أى مساس بالجوهر والصفات[١] .

وأحيانًا أخرى يقول « وإن كان لابد من التخيل فالأقرب أن الشأن فى نفسه كالنقطة من المحيط وما بينهما ، فالنقطة الحق ، والفراغ الخارج عن المحيط العدم أو قل الظلمة — فالنقطة هى مبعث الضوء — وإنما أعطينا النقطة لأنها أصل وجود محيط الدائرة » فالمحيط كله منبعث بهذه المثابة من النقطة « والخطوط الخارجة الممكنات فمن الله ابتداؤها وإلى الله انتهاؤها وإليه يرجع الأمر كله ، فإن الخط إنما ينتهى إلى نقطة ، فأولية الخط وآخريته

(١) انظر : الفتوحات المكية ، الجزء الثانى ص ٥٩١ .

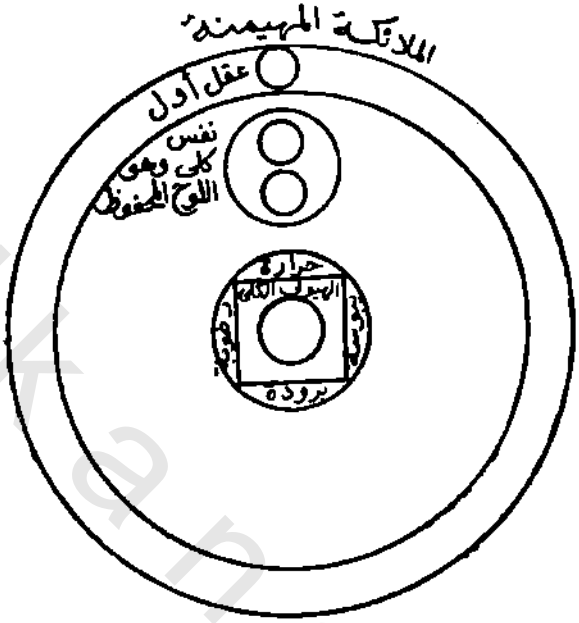
الملائكة المهيمنة
عقل أول
نفس كلي وهي اللوح المحفوظ
حرارة
برودة

(شكل رقم ٢ - ٣)

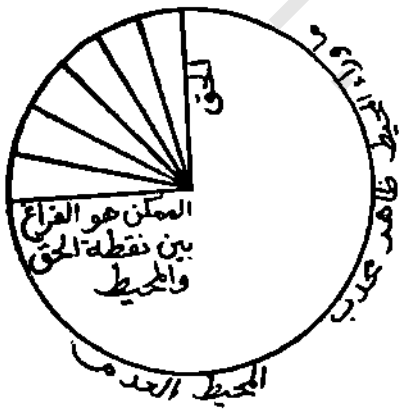
المحيط الأعظم
الحق
الممكن هو الفراغ بين نقطة الحق والمحيط
المحيط العدم

هما من الخط وما هما من الخط كيف شئت ، قلت : وهذا هو الذى ينبغى أن يقال لا هى هو ولا هى غيره كالصفات عند الأشاعرة ، فمن عرف نفسه هكذا عرف ربه »[١] .

وأحيانًا أخرى يتخذ للتعبير عن أفكاره بطريقة رمزية شكل الدوائر الثلاث ، على اساس أن « الدائرة المحيطة هى العماء ، والنقط التى فى الدائرة مثل أعيان الأرواح المهيمنة ، والنقطة العظمى فى هذه النقط العقل ، والدائرة التى إلى جانب النقطة العظمى التى فى داخلها نقطتان هى النفس الكلية واللوح المحفوظ ، والدائرة التى فى جوف هذه الدائرة العظمى هى جوهر الهيولى وهو الهباء والشكل المربع فيه هو العرش والدائرة التى فى جوف هذا المربع إنما هى الكرسى »[٢] .

أما دوائر الشكل الأول فيشرحها ابن عربى بأنها « دوائر أجناس الممكنات ، وهى محصورة فى جوهر متحيز وجوهر غير متحيز وأكوان وألوان » .. « ولا يتمكن أن يظهر عن الممكن الذى هو دائرة الأجناس دائرة كاملة .. فتكوين دائرة كاملة من الأجناس محال ، ليتبين نقص الممكن عن كمال الواجب الوجود لنفسه » وعلى ذلك فما يقدمه لنا إنما هو صورة شكل الأجناس والأنواع من غير قصد للحصر »[٣] .

ومهما اختلفت صور الدوائر عند ابن عربى فى توزيعاتها وتأويلاتها الدينية والفلسفية عما رأيناه فى فردوس دانتى فإن الاستعانة بها فى توضيح الأفكار الدينية المعقدة يرجع الفضل فيها إلى المفكر الأندلسىّ الذى لم يكن مجهولا لدى رجال اللاهوت وعلماء الدين المسيحى فى عصر دانتى مما يرجح وصول كثير من هذه العناصر إلى الشاعر الإيطالى الكبير .

## تدرج المتعة والرضا القنوع :

تتولد من الرؤية الإلهية لذة تتدرج فى عمقها تبعًا لحالاتها حتى تصل إلى مرحلة السكر والفناء ، هذه الفكرة نراها ماثلة عند دانتى فى مثل قوله :

« إنه نور روحانى مفعم بالمحبة ، بمحبة الخير الحق
الملىء بالبهجة ، التى تسمو على كل عذوبة »[٤]

وإذا أمكن رد الحديث عن هذه البهجة والمتعة إلى بعض عناصر التراث المسيحى

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق الجزء الثالث ص ٢٧٥ والشكل رقم ٣
(٢) انظر : نفس المصدر – السابق – الجزء الثالث ص ٢٤٠ والشكل رقم ٢ .
(٣) انظر : نفس المصدر – السفر الرابع من الطبعة المحققة ، ص ١٥٨/١٥٧ .
(٤) انظر : الفردوس ، نشيد ٣٠ ابيات ٤٠ – ٢٣ .

خاصة عند القديس « توما الإكويني » فإن مرحلتي السكر والفناء لا نظير لهما في هذا التراث ، إذ لا توجد أية إشارة إليهما كحالتين تعقبان الرؤية الإلهية ، فعندما يقول دانتي .

« وعجزت ذاكرتي أمام عظمتها
مثل من يرى في حلمه شيئًا وتبقى من بعد حلمه أثارة
مما أحس به لكنه لا يستعيد سائر ما رآه ..
هكذا أصبحت إذ كادت تخونني رؤيتي تمامًا ..
أيها النور الأسمى .. فلتعر عقلي ثانيًا شيئًا من الصورة التي بدوت عليها ..
إن لحظة واحدة تمنحني النسيان »[1] .

يمكننا أن نقارنه بقول ابن عربي :

« لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ولما زادهم من الخير فيتلذذون بها فإنهم في وقت المشاهدة كانوا في حال فناء عنهم » .. « فلم تقع لهم لذة في زمان رؤيتهم ، بل اللذة عند أول التجلي حكم سلطانها عليهم فأفناهم عنها وعن أنفسهم فهم في اللذة في حال فناء لعظيم سلطانها ، وإذا ابصروا تلك الصورة في منازلهم وأهليهم استمرت لهم اللذة وتنعموا بتلك المشاهدة فيتنعمون في هذا الموطن بغير ما أفناهم في الكثيب »[2] .

ومن كمال هذه المتعة أن الفوارق الناجمة عن اختلاف الدرجات فيها وفي لذتها ونعيمها لا تعقب لدى أهل الدرجات الدنيا حسدًا أو حزنًا أو غيظًا ممن ارتفعت درجاتهم وسمت منازلهم ، فكل واحد من أهل الفردوس قانع راض متمتع بما قدر له دون رغبة أو حتى تصور لما هو أكثر ، لأن كل أحد منهم يعشق بالضرورة مرتبته ويجد السلام والمتعة فيها ، يقول ابن عربي في هذا المعنى .

« وكل شخص يعرف مرتبته علما ضروريا يجري عليها ولاينزل إلا فيها كما يجري الطفل إلى الثدي والحديد إلى المغناطيس ، لو رام أن ينزل في غير مرتبته لما قدر ، ولو رام أن يتعشق بغير منزلته لما استطاع ، بل يرى في منزلته أنه قد بلغ فيها منتهى أمله وقصده ، فهو يتعشق بما هو فيه من النعيم تعشقا طبيعيا ذاتيا لا يقوم بنفسه ما هو أحسن من حاله ، ولولا ذلك لكانت دار ألم وتنغيص ولم تكن جنة ولا دار نعيم »[3] .

وتنبع هذه الفكرة في التراث الإسلامي من الآية الكريمة ﴿ ونزعنا ما في صدورهم

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق نشيد ٣٣ ابيات ٥٧ – ٦٠ .
(٢) انظر : الفتوحات المكية – الجزء الثالث ص ٥٧٨ وانظر كتاب أسين بالانيوس ص ٢٥٧ .
(٣) انظر : نفس المصدر السابق ص ٥٧٧ .

من غل إخوانًا على سرر متقابلين﴾[١] ، ومن ثم فهى دائمة الدوران فى كتب المأثورات وأدب الجنة .

ونفس هذه الفكرة نجدها عند دانتى فى مواضع عديدة من فردوسه ، فهو يشرحها مثلا على لسان « بيكاردا » عندما يسألها الشاعر عن حالة الطوباويين فى الحلقة البطيئة أو الدنيا وشعورهم تجاه حرمانهم من سعادة أهل الدرجات العليا فتقول له .

« وإن مشاعرنا التى لم تضطرم إلا بما يبهج الروح القدس
لتغتبط بالصورة التى ارتأى أن تكون عليها » .

ولكن دانتى يصر على توضيح تساؤله :

« ولكن خبرونى أيها الطوباويون هاهنا .. أترغبون
فى مكان أكثر علوًا ، لكى تصبحوا أقدر على الرؤية
وتنالوا محبة أعظم ؟

فتجيبه الروح : إن رغائبنا لترضى يا أخى بما فى المحبة من الفضل
الذى يجعلنا نشتهى مالدينا فحسب ولا يثير ظمأنا لشىء سواه
وإذا ما نحن رغبنا أن نزداد علوًا ، فلن تأتلف رغائبنا
مع مشيئة من يجعل مقامنا فى هذا المكان .

فيعقب دانتى قائلا . عندئذ اتضح لى كيف أن كل مكان فى السماء فردوس[٢]

## الرؤية فى وثيقة المعراج :

جاءت وثيقة معراج محمد لتؤكد أن هذه المأثورات الإسلامية قد عرفت يقينًا طريقها إلى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى قبل دانتى ، وقد عالجت الوثيقة موضوع رؤية الله على دقته الصوفية وحساسيته العقائدية بروح فنى تشكيلى باذخ فى الترف والإغراق فى التفصيلات .

وجاءت أولى لحظات هذه الرؤية فى السماء الثامنة حيث يقع العرش الإلهى ، وأهم ما وصفته الوثيقة فى هذا المشهد هو صفوف الملائكة الكروبيين الملتفين حول العرش ، فهم أو لا يسبحون بحمد الله فى أناشيد مهيبة ، ويكونون دوائر هندسية أسدلت عليها الحجب من كل الألوان والأضواء ، والعدد الغالب عليهم سبعون ألفًا فى معظم الأحيان ،

---

(١) سورة الحجر ، الآية رقم ٤٧ .

(٢) انظر : الفردوس ، الثالث أبيات ٦٤ – ٧٥ وكتاب أسين بالاثيوس ص ٢٥٩ .

وقد صيغت الحجب من اللؤلؤ والياقوت والزمرد والأحجار الكريمة ، وانبعث منها و الملائكة مهرجان سماوى هائل حافل بالأضواء اللامعة والموسيقى القدسية الجليلة . ويستمر هذا الوصف عدة فصول نرى خلاله نماذج غريبة من أصناف الملائكة وسكان الملأ الأعلى بآلاف الوجوه والألسن التى تنطق بالتسبيح بآلاف اللغات ، وهى دائمًا على شكل دوائر متلاحمة متراصة كأنهم جسد واحد لا يريمون حراكًا فى حضرة الله خشوعًا وإجلالا[1] .

ثم تأتى لحظة الذروة التى تصف رؤية الرسول للذات الإلهية عندما رفعت له كل الحجب حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ويحفل هذا المشهد بنفس المظاهر التى رأيناها عند دانتى وابن عربى من قبل ، وتتمثل فى غيبوبة الرسول ﷺ فى الحضرة الإلهية ، وما أصاب بصره من الغشاوة حتى انتقلت قوة إبصاره إلى قلبه ، ثم كيف صب فى قلبه العلم الإلهى بالكشف والإلهام ، كما تصف حالة الجذل والنشوة التى أعقبت الذهول والغيبوبة ، وكيف شعر الرسول ببرد قلبه وفرح فؤاده وطرب روحه العارم لتلك اللذة التى اسلمته للسكر من فرط روعتها ، ثم تدور مناجاة رقيقة بين الحبيبين يطلعه فيها الله على شىء من كنز أسراره[2] .

وقد رأينا كيف أن حقيقة النعيم تتمثل فى الرضا الذى يملأ نفوس الطوباويين سلاما وحبورا ، وهذا ما يصوره مشهد آخر فى الوثيقة – فى الفصل الرابع والأربعين – إذ يأتى الله لزيارة أحبابه من أهل الجنة تحوطه الملائكة ويسألهم : هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ قالوا نعم ، فيسألهم مرة أخرى ، ماذا ترون فى نعمائه التى أضفيتها على عبادى ؛ هل أنتم راضون عنها أم لا ؟ فيجيبون :

« لو كنت يا ربنا راضيًا عنا فنحن إذن من المفلحين » . هذا الشعور المطمئن بالرضا يغمرهم بعد أن ينالوا الحسنى وزيادة ؛ وما تلك الزيادة إلا نعيم رؤية الله تعالى وتجلى أنواره لهم .

على أن هذه الوثيقة – بكل عناصرها الثرية – لا تمثل إلا الحد الأدنى مما وصل للغرب من أدب المعراج ومأثورات الحشر والنشر والجنة والنعيم ، إذ أن المصادر الثقافية الإسلامية المتمثلة فى التراث الدينى والأدب الصوفى والأقاصيص الشعبية كانت تمتزج كلها فى وجدان الأمة الإسلامية وتشع بجاذبيتها وقوة تأثيرها على مختلف المستويات

---

(١) انظر الفصول رقم ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤ ، ٢٥ من الوثيقة المترجمة والملحقة فى نهاية الدراسة .
(٢) انظر نفس المصدر السابق فصول ٤٩، ٥٠ .

الكتابية والشفاهية ، فإذا عثر الباحثون على وثيقة تؤكد بعض عناصر هذا الإشعاع فينبغى أن لا تقتصر دلالتها على ما ورد فيها فحسب ؛ بل أن تعد نموذجا لوثائق أخرى عديدة صاحبتها ولتيار غير مكتوب من التقاليد الأدبية والثقافية حملها إلى هذا الأفق الجديد ، فالباعث على وجودها يتجاوز دائما كينونتها الخاصة إذ تصبح مجرد نموذج دال يؤكد تحقق الإمكانية ، فإذا جاءت المقارنة الموضوعية المفصلة لتقيم التقابل الدقيق بين مأثورات هذا التراث ونظائرها فى العمل الأدبى المدروس أصبحت برهانا لا يقل فى قوته عما ورد فى الوثيقة ذاتها .

وإذا كانت هذه الوثيقة قد أتمت دائرة قضية التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية ؛ تلك الدائرة التى وضع نقطتها « أسين بالاثوس » بعبقريته وصدق حدسه ، فإنها بالنسبة لنا فى العالم العربى والإسلامى تدعونا إلى طرح قضية أخرى تتولد عنها وينبغى لنا أن نجد فى البحث عن أسبابها وأنظارنا معلقة بالمستقبل بقدر ما ترمق الماضى ونطرحها فى شكل السؤال التالى :

لماذا أثمر هذا التراث الخصب من المأثورات الدينية والأدبية والصوفية والشعبية واحدة من أهم الملاحم الدينية فى الآداب الأوربية ، وأثمر شيئا قريبا من ذلك فى الملاحم الفارسية من سنائى إلى إقبال ثم عقم الأدب العربى عن احتضان هذه الخمائر واستثمارها والافادة منها ؟ ثم ؛ ألا سبيل أمامنا للإفادة الرشيدة من هذا التراث العظيم بكل طاقاته الروحية وإمكاناته الشعرية وقدرته الهائلة على تجسيد الوجدان الشعبى فى أعمال فنية فذة ؟